

**الحصن الفرنسي (الباستيون) بمدينة القالة خلال الفترة العثمانية - دراسة تاريخية أثرية -
The French fortress (Bastion) in the city of El Kala during the Ottoman period -an
archaeological and historical study -**

كهو هيبه خليل

جامعة المدية (الجزائر)

khelil.ouahiba@univ-medea.dz

المعلومات المقال	الملخص:
تاريخ الارسال: 2022/04/20 تاريخ القبول: 2022/10/09 الكلمات المفتاحية: ✓ الحصن الفرنسي ✓ المعاملات التجارية ✓ الفترة العثمانية ✓ مرجان القالة	تناولت في هذا البحث الحصن الفرنسي (الباستيون) بمدينة القالة الذي أسس خلال الفترة العثمانية، من طرف الفرنسيين لاستغلال وتجارة المرجان، وقد اكتسب الحصن أهمية خاصة نظرا للدور الكبير الذي لعبه في المعاملات التجارية الأوروبية، نهدف من خلال هذه الدراسة إلى إبراز القيمة التاريخية والأثرية للحصن الفرنسي ودوره في الحركة الاقتصادية وكيفية استغلاله. أوجد الحصن حركة اقتصادية نشيطة ما بين القرن 15 و 17م، فاشتهرت مدينة القالة بفضل حصنها وأصبح قبلة للتجار، وفتح المجال للمتاجرة بأنشطة أخرى، كما أن الشركات الاحتكارية الأجنبية خدمت مصالحها ومصالح بلادها، وتطور صيد وصناعة المرجان في الجزائر نتيجة التواجد الأوروبي والذي ساهم إلى حد ما في إيجاد فرص عمل للجزائريين الذين أدركوا مدى أهمية هذه المادة، ولو أن الاستفادة لم تكن محلية إلا بنسبة ضئيلة.
Article info	Abstract:
Received: 20/04/2022 Accepted: 09/10/2022 Key words: ✓ French bastion ✓ Commercial relations ✓ Ottoman period ✓ El-Kala Coral	In this research, I dealt with the subject of the French fort (Bastion) in the city of El Kala, which was established during the Ottoman period, by the French for the exploitation and trade of coral, and the fort has acquired particular importance because of the great role it played in European commercial transactions. We aim through this study to highlight the historical and archaeological value of the French fort and its role in the economic movement. The fort created an active economic movement between the 15th and 17th centuries AD. The town of El Kala became famous for its fort and became a destination for merchants, the development of the fishing and coral industry in Algeria thanks to the European presence, which contributed to some extent to creating opportunities for job for the Algerians who realized the importance of this marriage. even if the profit was only a small percentage locally.

أسس الحصن الفرنسي بمدينة القالة خلال الفترة العثمانية في القرن 10هـ/16م من طرف الفرنسيين، عرف بتسمية الباستيون¹ في الوثائق العثمانية وكانت نشأته بهدف استغلال وتجارة المرجان في السواحل الجزائرية، وكان القاعدة الأساسية لتجارة الشركات الفرنسية والأجنبية فيما بعد، (Poiret, 1789, p. 18) لعب دورا هاما في الميدان الاقتصادي من جهة، ومن جهة أخرى محطة بحرية بين القالة وعنابة تستفيد منها السفن الفرنسية المتنقلة من الرأس الأسود بتونس إلى عنابة والقل وجيجل، كما يعد مركزا هاما يربط بين فرنسا والجزائر في تصدير المرجان إلى مختلف أنحاء العالم (Berthelot, 1846, p. 14). فاشتهرت مدينة القالة بحصنها، ومرجانها سواء في الفترة الوسيطة عندما كانت تسمى بمرسى الخرز أو خلال الفترة العثمانية والاستعمارية.

وقع الاختيار على ما يسمى بالحصن فرنسا آنذاك، اثر الامتيازات العديدة التي حظيت بها فرنسا على عهد الملك فرنسوا الأول في الشرق الجزائري، والتي تضمنتها معاهدة الامتيازات التي أبرمها مع السلطان العثماني سليمان القانوني، في شهر فيفري من سنة 1536م، والتي مهدت وكانت من أهم الأسباب التي أدت إلى استغلال تجارة المرجان في الجزائر من طرف الفرنسيين، وإقامة الحصون والشركات في السواحل الجزائرية الشرقية وفي منطقة القالة تحديدا، (Hammer, 1836, pp. 266-229) واعتبرت فرنسا موانئ شرق الإيالة من ممتلكاتها الخاصة فلا يحق لغير الفرنسيين أن يتاجروا فيها (Étienne, 1878, p. 20) فقاموا ببناء الحصن الفرنسي، مقابل إتاوات تدفع للباب العالي سنويا.

شكل مرجان مدينة القالة فرعا أساسيا من فروع التجارة الدولية في الجزائر خلال القرن (4-13هـ/10-19م)، مما جعله يحظى باهتمام جل التجار الأوروبيين، وكان للمدينة دور كبير في ترويج وتجارة وصناعة هذه المادة التي أسالت لعابهم، وهذا لتوفرها على شعاب مرجانية هائلة، وهو من أجود المرجان في العالم، فمدينة القالة وحصنها الفرنسي أوجدت حركة اقتصادية نشيطة خاصة خلال القرن 15م و16م، فأصبحت أسواق مدن بايلك الشرق من أغنى الأسواق في شمال إفريقيا، وصدر مرجان القالة إلى مختلف أنحاء العالم كمرسيليا، والهند والصين وإيطاليا وغيرها.

فكيف استغلت الشركات الاحتكارية الأجنبية الحصن الفرنسي؟ وما هو الدور الذي لعبه في تسيير

اقتصاد الشرق الجزائري خلال الفترة العثمانية؟ وكيف احتكرت الشركات الأجنبية صيد المرجان وتجارته؟

سنحاول من خلال هذا البحث دراسة الحصن الفرنسي من الناحية التاريخية والأثرية وإبراز دوره وأهمية خلال الفترة العثمانية من الناحية الاقتصادية، واستغلاله في تجارة المرجان من طرف الفرنسيين والذي عاد عليهم بالأرباح الكثيرة، وقد اعتمدت في هذه الدراسة على الجانب النظري واستخدمت فيه المنهج التاريخي الوصفي التحليلي فجمعت المادة التاريخية ثم قمت بتحليل الأحداث وتركيب المعلومات من المراجع والمصادر والوثائق.

1. تأسيس مؤسسة الحصن الفرنسي

يذكر الرحالة بوارى Poiret سنة 1200هـ/1785م، أن نشأة المركز التجاري- الحصن الفرنسي- كان بهدف إلى استغلال المرجان، وقد اختلفت الروايات التاريخية حول تاريخ تأسيس الحصن الفرنسي (الباستيون)، فأرجعه البعض إلى سنة 792هـ/1390م، أثناء حملة الدوق دويوربون De²bourbon على المهديّة في تونس، غير أن هناك من استبعد ذلك أمثال المؤرخ لابريموادي (Primaudaie, 1860, La primaudaie p. 448) في حين أن أوجين بلانتي يذهب إلى أن التجار البروفانسيين القادمين من جنوب فرنسا، عقدوا اتفاقاً مع شيوخ الأهالي على استغلال صيد المرجان من الشريط الساحلي الممتد من طبرقة إلى عنابة، في الوقت الذي كان فيه خير الدين يحاول بسط سيطرته على عنابة وقسنطينة سنة 926هـ/1520م، (Plantet, 1930, p. 05) ويبدو أن هذا الاتفاق كان تمهيداً لبناء أول حصن في الشرق الجزائري. (الشيخ، 2012-2013، ص ص 12-13)

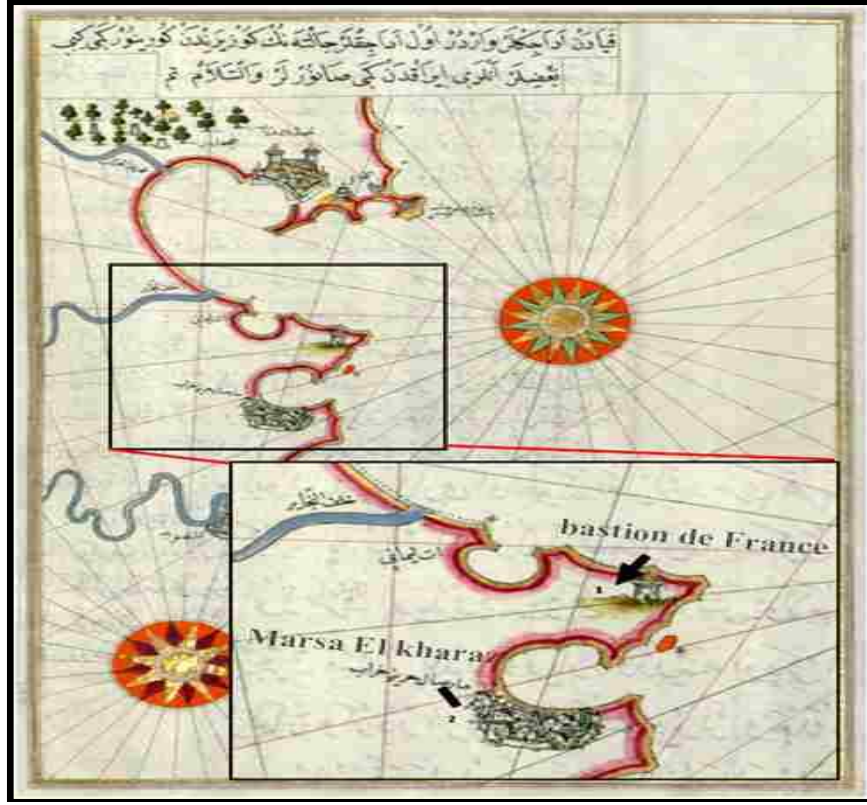
ذكر فيرو أن الفرنسيين بنو أول حصن وأسموه لوباستيدون Le Bastidoun، والتي تعني بالبروفانسية الحصن الصغير، والذي أصبح يسمى فيما بعد بحصن فرنسا. (Féraud, 1877, p. 93) من طرف المرسلين توماس لانث Thomas Linche، وكارلين ديديه Carlin Didier سنة 931هـ/1524م³، حين تحسلاً على موافقة الأهالي باستغلال حوالي 48 كيلومتر من الشريط الساحلي الممتد من الرأس الأشقر إلى وادي سيبوس، وقيامهما بإنشاء أول محطة تجارية على شاطئ خليج بومالك، (Féraud, 1877, p. 93) بالقرب من مناطق انتشار المرجان، هذا وقد ساند فيرو بعض المؤرخين في قولهم أن الفرنسيين اشتروا قطعة أرض عبارة عن شبه جزيرة من قبيلة تسمى بقبيلة معزولة⁴ المقيمة في مجاز النشا، وبنو عليها أول حصن سمي بحصن مسكراس (Maddy, 1993, p. 9) وهو ما عرف فيما بعد بالحصن الفرنسي، وحسب الباحث بول ماسون Paul Masson فإن تسمية الحصن الفرنسي لم تصبح متداولة إلا في القرن 17م حيث كان يعرف بحصن ماسكراس Bastion de Massacarès تحريفاً لكلمة مرسى الخرز. (Masson, 1928, p. 83) كما أطلق على هذه المنطقة التجارية امتيازات معزولة⁵.

تؤكد نظرية فيرو وهؤلاء المؤرخين، ما ذكره دوجون Degen بقوله أن حسن باشا ابن خير الدين بربروس احتل الحصن الفرنسي سنة 958هـ/1551م واسترجعه الفرنسيون بعد دفع فدية لحسن باشا، أي أن الحصن كان مبنياً قبل هذه السنة، وحسب الباحث "لكحل الشيخ" فقد زار محي الدين بيري ريس السواحل الجزائرية في عشرينيات القرن السادس عشر ووصف نشاط الجنوبيين في مرسى الخرز والمناطق الساحلية المجاورة، ولم يأت على ذكر أي نشاط للفرنسيين، (الشيخ، 2012-2013، ص 10) ولكن عندما دققنا في الخريطة التي وضعها هذا الأخير لساحل بلاد العناب (عنابة)، ومرسى الخرز (القالّة) اتضح أنه كان يوجد مبنى عبارة عن حصن صغير بين مدينة القالّة ومدينة عنابة، في نفس مكان الباستيون، فربما يكون هذا البناء الاستفتاح الأول للحصن الفرنسي⁶، أو ما سمي بحصن لوباستيدون أو مسكراس، وإذا علمنا أن محي الدين

بيري ريس وضع خريطته قبل سنة 935هـ / 1528م، فمن خلال ذلك يتضح لنا أن الحصن كان موجودا قبل السنة المذكورة أعلاه، وربما بني من طرف الجنوبيين، (الخريطة: 01).

الخريطة 01: الحصن الفرنسي ومدينة مرسى الخرز (القالة)

1: الحصن الفرنسي / 2: مرسى الخرز القالة



عن: (بيري ريس القرن 10هـ / 16م) بتصرف

على الرغم من أن المؤرخ والجغرافي نيكولاس دي نيكولاي Nicolas De Nicolay، مبعوث الملك الفرنسي إلى اسطنبول رفقة السفير دارامون D'Aramont والذي زار السواحل الجزائرية من مدينة الجزائر حتى عنابة سنة 957هـ / 1550م، (Nicolas, 1576, p. 24) لم يتحدث في كتابه عن وجود أي مراكز فرنسية لتجارة وصيد المرجان، وقد تحدث عن تواجد الجنوبيين في الشرق الجزائري، وهذا ما ذهب إليه مؤرخي القرن 10هـ / 16م، على رأسهم حسن الوزان ومارمول، فقد ذكروا أن الجنوبيين تحصلوا على امتياز صيد المرجان في هذه المناطق، (الشيخ، 2012-2013، ص 17-18) وكانوا يرغبون في بناء تحصينات لمراكزهم من هجمات القراصنة، لكن الأهالي تدخلوا لدى السلطان الحفصي خشية أن يستغل الجنوبيين هذه المراكز للهجوم على مدينة عنابة (كريخال، 1984، ص 8).

تذهب نخبة أخرى من الباحثين الفرنسيين إلى أن الحصن الفرنسي بني ما بين سنة 957هـ / 1550م إلى سنة 958هـ / 1551م من طرف التجارين توماس لانش وكارلين ديديه، ويتصدر هذه المجموعة بيار دان (pierre, 1637, p. 57) ولابريموداي (De La Primaudaie, 1860) ، فذكر المؤرخ

لويس فليبي Louis Filippi أن المرسلين تحصلوا في حوالي سنة 957هـ/1550م على موافقة داي الجزائر على صيد المرجان بالسواحل البربرية Barbaresque من طرف التجارين توماس لانث وكارلين ديديه⁷، حيث كان المرجان في تلك الفترة مطلوب بكثرة في بلدان شرق المتوسط، وكان أكبر سوق للمرجان في مدينة الإسكندرية، كما كان يتم نقله للهند بواسطة القوافل العربية (Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 24).

أدرك توماس أهمية ثروة المرجان التي تزخر بها شواطئ الجزائر، فأصبح يخطط من أجل الانفراد باستغلالها قبل سنة 851هـ/1547م، أي قبل أن تظهر أول شركة من طرفه. (Masson, 1928, p. 10) ساعده على ذلك وعود الملك هنري الثاني⁸، في رسالة لمنحه حق الرسو لجميع السفن المخصصة لشركته، بالإضافة إلى الحماية الكاملة لجميع البحارة وأعوان شركة المرجان، (Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 24) كما ساند الباشا علي⁹، فبفضل هذا الأخير استقر لانث في البداية بمدينة عنابة¹⁰، وقام بإنشاء أول محطة تجارية بمدينة القالة - مرسى الخرز - والتي كانت محاطة بالبحر من كل الجوانب، ما عدا ذلك الممر الضيق والذي كان يغمر أحيانا بالماء في فصل الشتاء، وهذا ما ذكره البكري: "مدينة مرسى الخرز فيه المرجان وهي مدينة قد أحاط بها البحر إلا مسلك لطيف ربما قطعه البحر في الشتاء عليها سور وبها سوق عامرة...". (البكري، 1971)

في حين أن بول ماسون يرى أن ظهور الحصن الفرنسي يعود إلى سنة 968هـ/1560م، (Masson, 1928, p. 9) حيث توجد وثيقة تعود إلى القرن 10هـ/16م تحدد مناطق استغلال المرسلين للمرجان وهي من رأس مفتوش الذي يقع في الكتلة الجبلية التي تفصل حوض سكيكدة وحوض عنابة إلى الرأس الأسود بتونس، وهي سواحل بطول حوالي 200 كلم وهي مسافة معتبرة. (Masson, 1928, p. 78) أما الباحث لاكمبا فذكر أن الباسطيون الفرنسي أسس بعد سنة 973هـ/1565م، وقد ظهر اسم الباسطيون في السجلات لأول مرة سنة 975هـ/1567 تحت تسمية:

"la nostra compagnia della pesca de coralli di Massacarès et Bona "

والتي تعني شركة صيد المرجان بمرسى الخرز وبونة، ودليله على ذلك أنه تم العثور على أرشيف مقاطعة ايزر¹¹ Esère بفرنسا، يحتوي على سجلات تحمل اسم شركات المرجان، من طرف الأرشيفي فورنيه Fournier، (Masson, 1928, p. 5) فيها حسابات ومعلومات كثيرة حول استغلال وتجارة المرجان في القرن 10هـ/16م، أي ابتداء من سنة 975هـ/1567م، في سواحل الجزائر وتونس، والملاحظ أن هذا الأرشيف يحتوي على ستة عشر سجل بالإضافة إلى عدة كراسات، ومن بين تلك السجلات وجد سجل كبير يضم ستة مائة صفحة تقريبا، الصفحات المائة الأخيرة في حالة حفظ سيئة، وهي حسابات للسنوات 1567-1569م، وسجل آخر يحتوي على 120 صفحة في حالة سيئة من الحفظ بسبب بقع العفن في كثير من

صفحاته، ويضم حسابات للسنوات 1570م، 1571م، 1585م، 1586م، وسجل آخر يحتوي على 489 صفحة، وهو نسخة فرنسية تعود للقرن 11هـ/17م، وهو في حالة جيدة، أما السجل رقم (E II 956) فيحتوي على 224 ورقة، فيه حسابات للسنوات من 1576م إلى 1593م وهي محاسبة للعمليات التي أجريت في الباستيون (Masson, 1928, p. 2).

يمكن القول من خلال هذا التضارب بين المؤرخين والباحثين في تاريخ تأسيس الحصن الفرنسي أنه ربما بني بعد التوقيع على معاهدة الامتيازات بين سليمان القانوني وملك فرنسا فرنسوا الأول سنة 1536م، ولكنه كان بسيطاً في مبناه، والاستقرار الفعلي له كان ابتداء من سنة 969هـ/1561م، بعد إمضاء بعض المعاهدات التي تخص بناء الحصن الفرنسي واستغلاله كمركز لصيد المرجان.

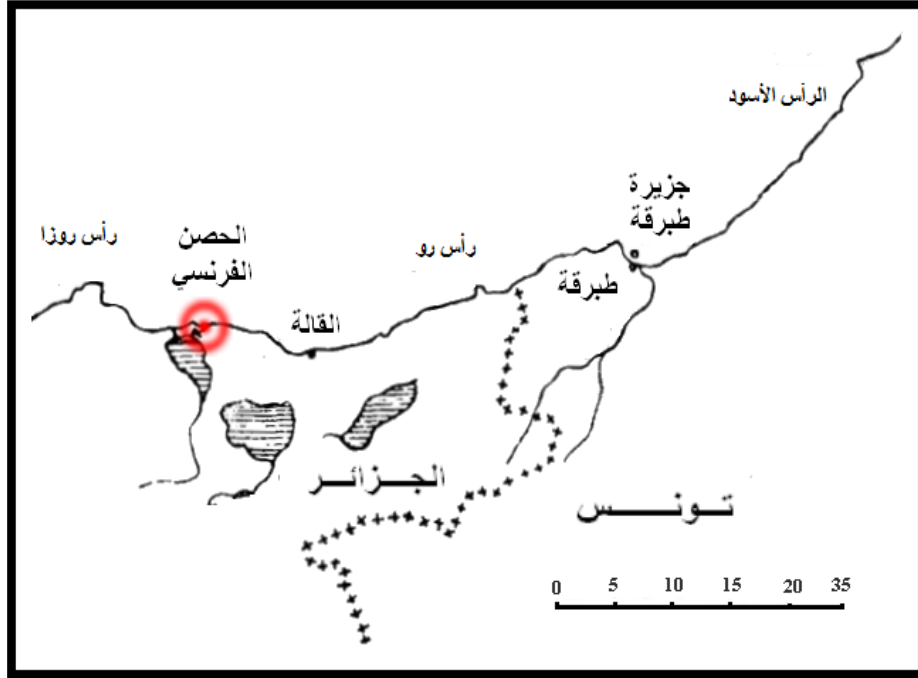
2. موقع الحصن وبنائه

يقع على بعد حوالي 12 كلم غرب مدينة القالة، في خليج صغير بمحاذاة الشاطئ، حيث ترسو عادة القوارب المخصصة لصيد المرجان، ويبعد عن تونس بحوالي 100 ميل، بني الحصن الفرنسي خلال القرن 10 هـ/16م على يد الآلاف من الكورسكيين الذين غادروا كورسيكا للبحث عن الثروة على حد قول المؤرخ فيليبي Filippi، وقد عملوا على مدار قرنين من الزمن لصالح فرنسا، (Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 24) وورد في إحدى المذكرات التي تعود إلى سنة 1012هـ/1603م، والتي تؤكد أن لانش حصل على رخصة بناء الحصن الفرنسي شريطة خلوه من كل العناصر الدفاعية، (Masson, 1928, p. 82) إلا أن بعض السجلات ذكرت وجود حامية صغيرة في الحصن وأنه كان مزود بمستودع للبارود وبنادق ومدفعية، حيث زود جون بيرول Jean Berault¹² في سنة 991هـ/1583م الحصن بحوالي 1145 رطل من البارود، (Masson, 1928, pp. 86-87) كما توجد مراسلة مؤرخة سنة 23 جوان 1568م تسمح للشركة المارسلية إخراج مدافع من فرنسا لاستعمالها في حماية الحصن الفرنسي، من هجمات القبائل المجاورة وهجمات السفن القادمة من جزيرتي مايوكا ومينوركا (Masson, 1928, pp. 86-87) وهذا يتناقض مع الشرط الذي أبرمه لانش عند بنائه للحصن، وحسب ما ورد عن أحد مرافقي الرحالة سافاري دي براف Savary de Brèves¹³ سنة 1014هـ/1605م يصف الحصن بقوله: "هذا البناء ليس بالحصن ولا بالقصر، هو عبارة عن بناء عادي سمح السلطان بإقامته لإيواء صيادي المرجان الفرنسيين"، ويتشكل من منزل ومن مستودع يستعمل من طرف الصيادين (Masson, 1928, pp. 86-87).

حسب الباحث فيليبي فهو بناء ضخم، ويؤكد قوله أنه في سنة 1018هـ/1609م راسل الملك هنري الرابع السلطان بخصوص ترميم الحصن من طرف الشركة المارسلية وطالب منه مزيد من الامتيازات للشركة، وتزويد الحصن بسور خارجي من الطين وأكواخ وطاحونة وفرن ومخازن، كما استبدلت الألواح الخشبية للأرضيات بالبلاطات التي جلب من مارسيليا، إن استعمال كل هذه المواد في الحصن ربما يتنافى حين وصف هنري الرابع للسلطان هياكل الحصن على أنها أكواخ، وبالتأكيد فانه ذكر ذلك عن قصد، وعليه فالحصن لم

يكن مجرد مبنى بسيط، ففي الاتفاقية التي جرت في 29 سبتمبر 1628م بين الشركة المارسلية الأولى وإيالة الجزائر لإعادة بناء الحصن كما كان وحمانيته ضد هجمات الأعداء، يتبين أن شكل الحصن لم يتغير كثيرا في القرنين 16-17م. (Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 25) (الخريطة 02).

الخريطة 02 : موقع الحصن الفرنسي



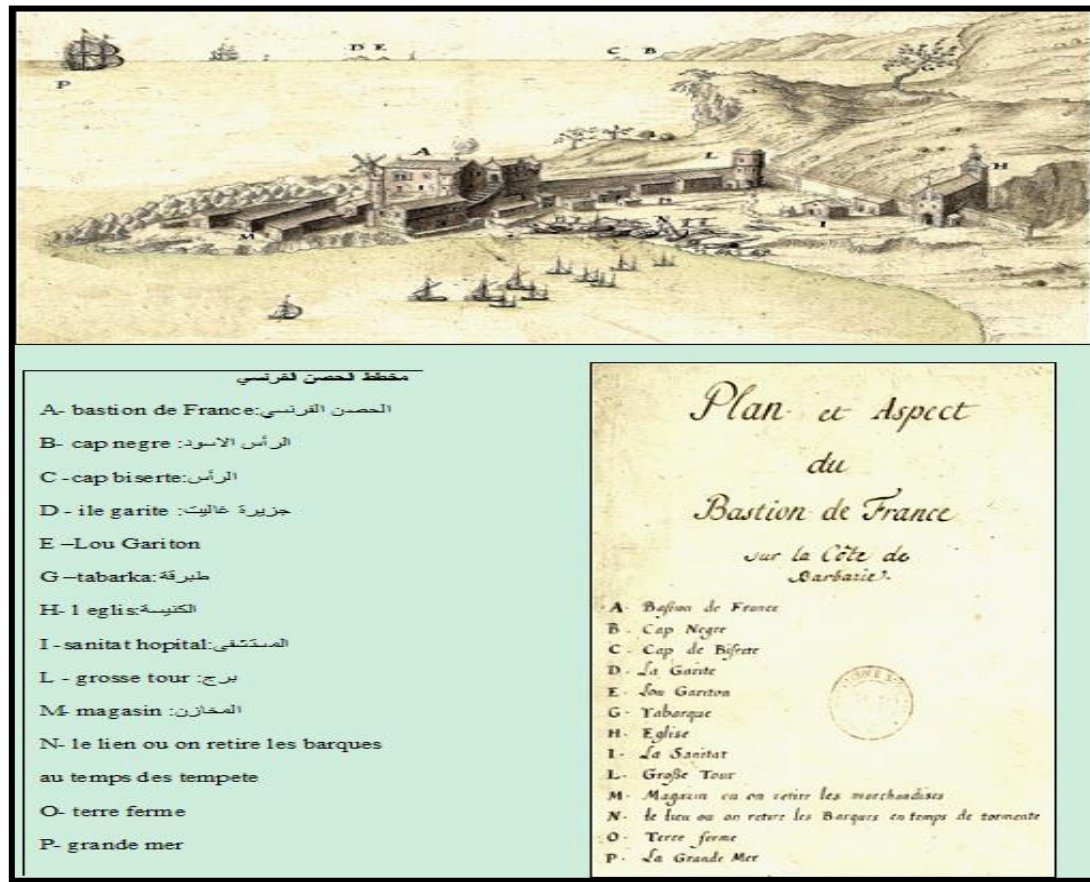
عن: الباحثة

3. وصف الحصن

ذكر فيليب أن الحصن عبارة عن قلعة مربعة الشكل يقع على جرف صخري على ساحل البحر بمحاذاة خليج صغير، وتعتبر هذه المنطقة معزولة ولا توجد طرقا برية توصل إليها، هذه المنشأة بهيكلها البسيطة ومن دون دفاعات (Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 25) يتكون من ساحتين كبيرتين يتوسطهما برج للمراقبة، مزود بثلاث قطع مدفعية متوسطة الحجم، الساحة الأولى تقع شمالا حيث يوجد مخازن القمح وبضائع أخرى، كما توجد هناك عدة غرف منخفضة يقيم فيها بعض ضباط الحصن، والساحة الثانية أكبر مساحة من الأولى، وهي تطل على الشاطئ حيث ترسو القوارب والفرقاطات، وفي طرف الساحة توجد كنيسة تسمى القديسة كاترين Sainte Catherine، وغير بعيد منها توجد مقبرة الحصن، وبجانب الكنيسة أقيم مشفى لمعالجة الضباط والجنود وباقي المقيمين في الحصن، ويحتوي هذه المبنى على عدة غرف يقيم فيه جنود الحامية. (Dan, Histoire de Barbarie et de ses corsaires, 1649, p. 58) (الصورة: 01- الشكل: 02، 01)

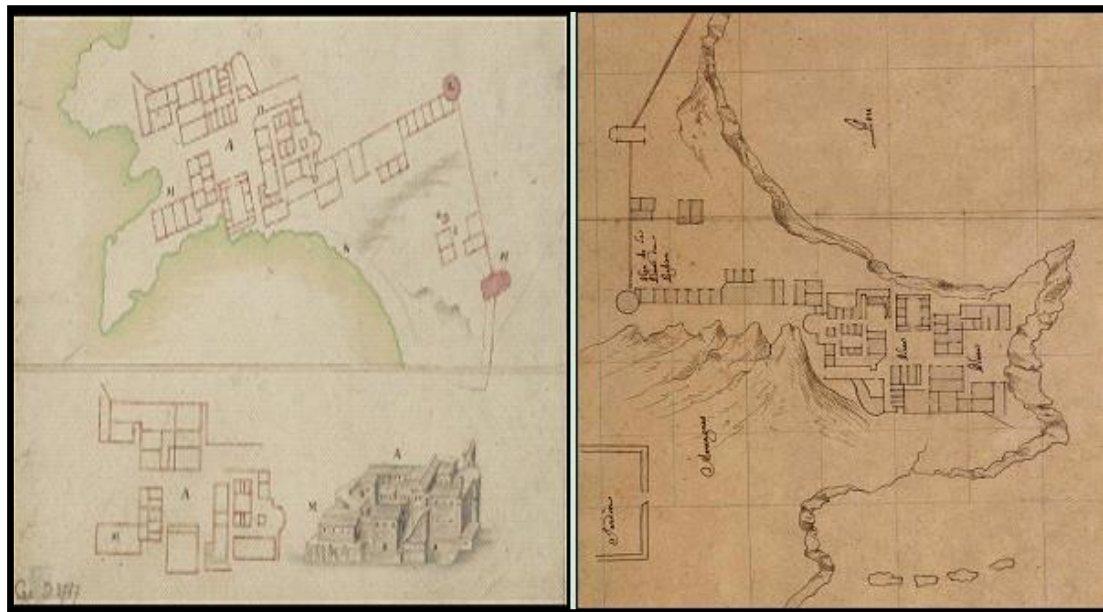
الحصن الفرنسي (الباستيون) بمدينة القالة خلال الفترة العثمانية - دراسة تاريخية أثرية -

الشكل 01: رسم تخطيطي للحصن الفرنسي



عن: المكتبة الوطنية الفرنسية بتصرف

الشكل 02: مخطط للحصن الفرنسي



عن: (المكتبة الوطنية الفرنسية)

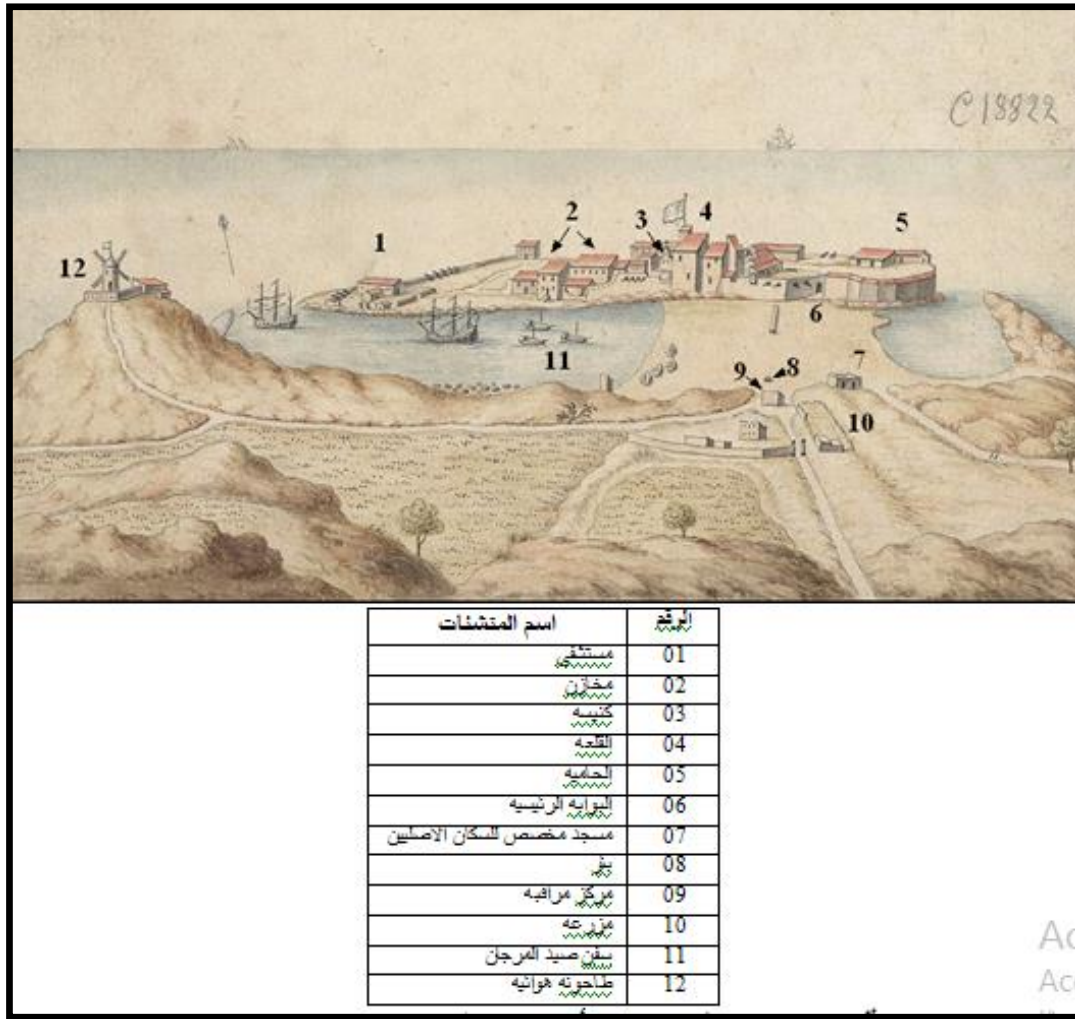


عن: (مديرية الثقافة لولاية الطارف)

4. ملحقات الحصن

نقصد بملحقاته المراكز والموانئ، ومناطق الأنشطة الفرنسية الاقتصادية التابعة للحصن، وقد كانت منتشرة على الساحل الشرقي للجزائر، وكانت تابعة لإدارة الباستيون من حيث مصاريف الكراء والتجهيز وأجور العمال وباقي الأعباء، ورغم اختلاف نشاطها، فقد كانت بعض المراكز والموانئ مختصة بصيد المرجان، كما اختصت بعضها بتصدير نوعية معينة من السلع نظرا لقربها من مناطق جلب تلك السلع، ومنها من أخذت على عاتقها مهمة حماية مخازن المواد التي جمعت من الأهالي، (الشيخ، 2012-2013، ص23) قبل نقلها إلى موانئ التصدير. ومن أهم هذه الملحقات مركز القالة، وهو أول مركز طالب الفرنسيون بضمه إلى الباستيون، وذلك لقربه من هذه الوكالة، وقد استعمل كمحطة وملجأ لسفن الباستيون، وكان المركز يضم مخزينين كبيرين للمرجان (Bainier, 1877, p. 265) (الشكل:03)

الشكل 03: مركز القالة سنة 1112هـ / 1700م



عن: المكتبة الوطنية الفرنسية بتصرف

يعتبر خليج سطورة أيضا من بين ملحقات الحصن الذي بناه الفرنسيون على ضفاف مدينة سكيكدة، وهو أولى المراكز الفرنسية إن لم يكن الوحيد، الذي نصت عليه معاهدة الامتيازات، التي وقع عليها السلطان أحمد الأول سنة 1013هـ/1604م، وحسب المصادر فإنه كان من المناطق المفضلة للفرنسيين لصيد المرجان، (الشيخ، 2012-2013، ص 23) وذلك لغناها وجودة مرجانها، كما كان له نشاط آخر يتمثل في تجارة الخيول، والجلود، والشمع، وغيرها (Féraud, 1877, p. 101).

أما وكالة عنابة فقد اشترت من عوائد الباستيون، وكانت كبيرة وفسيحة، يشتغل بها خمسة وكلاء بالتداول (الشيخ، 2012-2013، ص 23)، كما استعمل مركز القل أيضا لصيد المرجان وتصديره. ومن بين الملحقات أيضا مركز الرأس الوردي، الذي يقع على بعد حوالي 18 كلم غرب الباستيون، ويمتد داخل البحر، مكونا الحد الشرقي لخليج عنابة، (Peyssonnel, 1838, p. 224) وهذا المركز يقع في أراضي قبيلة الشيخ مبارك، وبالتالي فهو يعمل على تأمين مرور البضائع التي اشترت من طرف الأهالي، في مقابل دفع مبلغ من

المال لهذه القبيلة. (Savary, 1757, p. 476) وآخر مقر هو دار الجزائر، الذي استعمل كمحل إقامة مؤقتة لموظفي الباستيون في مدينة الجزائر، سواء القادمين من فرنسا أو المكلفين بمهمة لدى حكام الجزائر (الشيخ، 2012-2013، ص 24).

5. أوضاع الحصن الفرنسي من سنة (1013 - 1050 هـ / 1604 - 1640 م)

كانت العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن 10 هـ/ 16 م في عمومها هادئة، إن لم نقل أنها تصل إلى درجة الوئام، لكن مع بداية القرن 11 هـ/ 17 م بدأت العلاقات بين الطرفين تأخذ منحى آخر، بسبب تغير الوضع في الجزائر وفي فرنسا نفسها، فالجزائر أصبحت تمتلك قوة ضاربة، تهدد بواسطتها المصالح الاقتصادية للدول الأوروبية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطي، بواسطة أسطولها، أما فرنسا فقد عرفت هي الأخرى فترة من الاستقرار والازدهار بفضل سياسة هنري الرابع،¹⁴ وانعكس ذلك على نشاط وكالة الباستيون (الشيخ، 2012-2013، ص 41).

1.5. تهديم الحصن الفرنسي سنة 1013 هـ/ 1604 م

عرفت المؤسسة تدهورا في نشاطها منذ بداية القرن 11 هـ/ 17 م، بسبب تعرضها للهدم من قبل الجزائريين سنة 1013 هـ/ 1604 م، ومن بين الأسباب التي أدت إلى تهديمها حسب المصادر، هو انتهاك هذه الوكالة لبنود الاتفاقيات بتصديرها لكميات معتبرة من الحبوب نحو فرنسا، فقد ذكرنا سابقا أن وكالة الحصن الفرنسي توسع نشاطها من صيد المرجان إلى تجارة الحبوب، وأن هذا النشاط الأخير، غير المرخص به في نصوص الاتفاقيات والمعاهدات في تلك الفترة، لم يكن يلقى معارضة رسمية من قبل المسؤولين الجزائريين، الذين كانوا يغضون النظر عنه ما دام يدر عوائد إضافية إلى خزانة الجزائر (الشيخ، 2012-2013، ص 42)، حيث شهد بايلك قسنطينة بين 1010-1011 هـ / 1602-1603 م انتشار وباء الطاعون أعقبه سنوات من الجفاف، مما تسبب في مجاعة عمت بايلك الشرق، وغضب الأهالي عندما علموا أن تجار الباستيون يصدرون الحبوب التي كان من المفروض أن تطعمهم¹⁵، فقامت على إثرها سفن الرايس مراد، بتهديم الحصن في جوان من سنة 1013 هـ/ 1604 م بأمر من ديوان الجزائر فدمرته وخربت كل ما فيه، كما يذكر بول ماسون أن من بين الأسباب لتدهور العلاقات الفرنسية الجزائرية وتهديم الحصن، أنه قدمت العديد من الشكاوي من طرف الفرنسيين نتيجة نقض القراصنة الجزائريين لنصوص المعاهدات. كما ذكر ماسون سببا آخر، حيث أشار إلى عدم التزام شركة لانث بتعهداتها للجزائر بدفع اللزمة المفروضة في مقابل استغلال الحصن. (Masson, 1928, p. 103)

فشل الفرنسيون في إعادة بناء الحصن والعودة إليه من جديد، بعد عدة محاولات مع ديوان الجزائر أهمها محاولة مصطفى آغا والسفير دو بريف¹⁶ كما ذهب توماس¹⁷ سنة 1015 هـ/ 1607 م للتفاوض مع الديوان، ورغم فشل المحاولات الفرنسية لإعادة بناء الباستيون في بداية القرن 17 م، إلا أن الفرنسيين لم يتراجعوا عن رغبتهم الملحة في تحقيق هذا الهدف، ولو أدى ذلك لاستخدام القوة، فقاموا بعدة محاولات غير

رسمية للهجوم على الباستيون واسترجاعه، اتسمت بالمفاوضات أحيانا، غير أن هذا الوضع كان في معظم الأحيان سببا بزيادة توتر العلاقات بين الطرفين، ولم يتمكن الفرنسيون من العودة إلى الحصن، إلا بعد قدوم سانسون نابليون (Filippi, Le Bastion de France, 1935, pp. 29-30).

2.5. استرجاع سانسون نابليون الحصن الفرنسي سنة 1037هـ/1628م

كان الفرنسيون يظنون أن الحصن الفرنسي ضاع للأبد بسبب تدهور العلاقات مع الجزائر، وما صاحبه من أعمال عدائية بين الطرفين، حيث وصلت أقصى درجات التوتر، وأصبحت الحرب مفتوحة بين البلدين في أغلب الأحيان بسبب نشاط الباستيون، إلا أن العبقري سانسون استطاع الاستحواذ عليه مرة أخرى وترميمه وذلك سنة 1037هـ/1628م، بأمر من الكاردينال ريشيليو. (Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 30)

أدركت فرنسا إثرها أن مصالحها التجارية والاقتصادية بالجزائر أصبحت مهددة من طرف منافستها إنجلترا، كما أنها أصبحت عاجزة على ردع نشاط البحارة الجزائريين وقوتهم، لهذا كلفت سانسون للقيام بعدة عمليات صلح¹⁸، وزاد نشاط سانسون من خلال مهمة أخرى، كلفه بها الملك في 14 جانفي 1626م، بالذهاب إلى مدينة الجزائر لعقد الصلح وفداء الأسرى،¹⁹ ووصل يوم 17 سبتمبر 1628م، (Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 31) مرفوقا حسب بعض المصادر ببعض الأسرى الجزائريين، ومدفعا دانسا²⁰ اللذين كانت الجزائر تشترط إعادتهما قبل توقيع أي معاهدة صلح وسلام بينها وبين فرنسا. (Grammont, De, 1887, p. 154)

وقد تسببا في أزمة وعداء كبير بين البلدين، إضافة إلى قضية الحصن الفرنسي، فبعد يومين من وصول سانسون إلى الجزائر استطاع عقد الصلح مع داي الجزائر، وإنهاء حالة العداء بين الجزائر وفرنسا، ومن ثم تم عقد معاهدة السلام، فقد كان هذا الرجل الدبلوماسي بارعا في عمليات الصلح، حينها وضع سانسون مخطط للساحل الإفريقي الذي يمتد من بونة إلى طبرقة، وكتب أسفله "la costa che guardano li Fransci in Barbaria" بالرغم من أنه كان يحب كثيرا موطنه كوريسكا، إلا أنه عمل لصالح فرنسا، فمعظم البنائين والعاملين في الحصن كانوا كوريسكيين، عملوا فيه على مدار قرنين من الزمن، ولما بنو الحصن لم يطلقوا عليه تسمية حصن كوريسكا أو حصن باستيا بل أسموه حصن فرنسا، (Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 24) سواء لمؤسسي الحصن الفرنسي لأول مرة، ويتعلق الأمر بلانش وديدي الكوريسكيان، أو مؤسسه الثاني سانسون الكوريسكي. وبذلك أعاد هذا الأخير بناء الحصن الفرنسي وهذا حسب ما ورد في نص الوثيقة الملحقة بمعاهدة السلام.

تعهد الجزائريون بعدم التعرض للسفن الفرنسية والاعتراف بالاستقلالية منشأتي القالة والحصن، كما تضمنت هذه المعاهدة بند امتياز لصالح سانسون بمكافئته للخدمات التي أسداها (قنان، جمال، 2010، ص 76)، وسيكون مسؤولا على الحصن ويسير كل المنشآت الفرنسية من دون تعيين أحد آخر طيلة حياته،

(Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 31) وهذا القرار الذي أدرج في المعاهدة لم يرضي المملكة الفرنسية والكاردينال ريشليو على وجه الخصوص (Féraud, 1877, ص 125)، يكون أن هذا الامتياز الذي منحه المتعاقد الجزائري لسانسون اعتبره الكاردينال أن هذه الوثيقة تنتافي وكرامة فرنسا وهذا سمح له بإعادة نشاط الحصن من جديد كما لم يكن من قبل. (Dan, Histoire de Barbarie et de ses corsaires, 1649, p. 60) وأقحم نشاط تجارة الحبوب بقوة، هذا إضافة إلى النشاط المرخص له وهو صيد وتجارة المرجان وكذا تجارة الجلود والكتان والشمع، الأمر الذي جعل الحصن يشهد نشاطا كبيرا خلال هذه الفترة، وبحنكة مديره سانسون نابلون، رغم بعض الأعمال العدائية بين البلدين التي كانت تحدث بين الفينة والأخرى. (Filippi, Le Bastion de France, 1935, pp. 31-32)

3.5. هياكل الحصن الفرنسي الجديدة

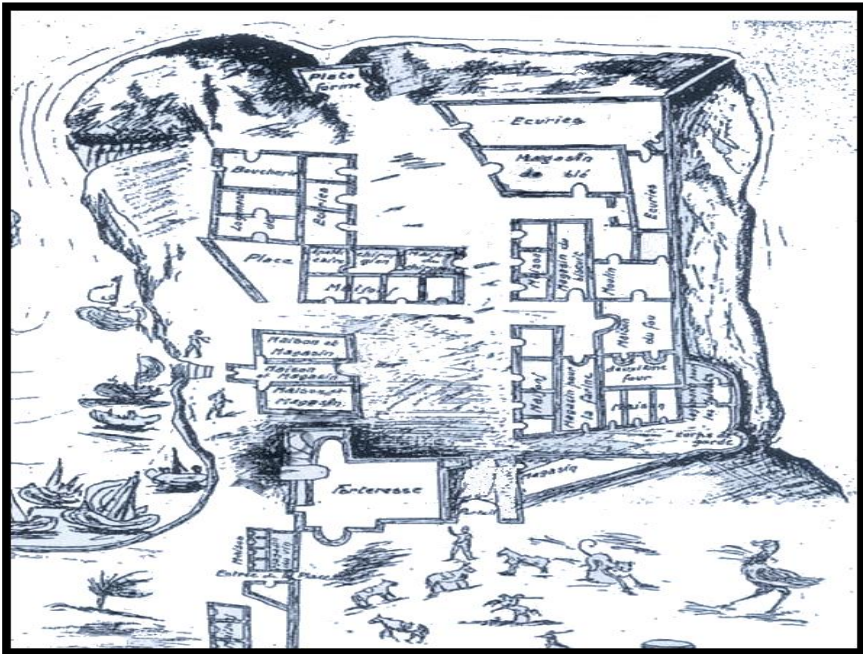
اتهم القنصل ريكو Ricou في مراسلاته للدولة الفرنسية باتهاماته الكاذبة لسانسون وتسييره السيئ للحصن، ووصل لحدّ اتهامه بأنه دخل في الإسلام سرا، وأنه صديق حميم للقراصنة الجزائريين ويقوم معهم بأعمال رهيبة، ووصلت هذه الإشاعات إلى مارسيليا، على الرغم من أن سانسون أنقض ريكو من القراصنة، ولكنه لم يعترف بالجميل بل أصبح من ألد أعدائه، (Filippi, Le Bastion de France, 1935, pp. 31-32) على إثرها كلف الكاردينال ريشليو أحد رجالات غرفة الملك ليزل انتري، للتأكد من حق الملك في الإشراف والنظر على هذا الامتياز الذي اتهم به سانسون، من خلال زيارة وتفتيش المنشآت وإعداد تقرير مفصل حول أهمية هذه المنشآت، وحول سيرة وتحركات سانسون، عندها وصل المبعوث للحصن في 11 أبريل 1632م للبدء في تحرياته، ومن خلال هذه التحريات يمكننا التعرف على هياكل الحصن الجديدة التي شيدها سانسون (Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 33).

فعند وصول المتحري استقبلته فرقاطة تابعة للحصن على ظهرها 40 بحار و 21 قارب لصيد المرجان مصطفة قرب الفرقاطة كل قارب على ظهره سبعة صيادين، فدخل إلى ساحة كبيرة داخل الحصن وتوجه إلى قلعة أين تضم مجموعة مكونة من نقيب وعريفين و 28 جندي وحامل الطبل، وقام بزيارة المخازن التي تحتوي على مئونة معتبرة من القمح والبسكويت والزيت والخمر، كما شاهد العديد من الحرفيين منهم: النجارين، والخبازين والجزارين والبنائين والبستانيين والمكلفين بالطحن، كما يوجد أيضا المكلف برعاية كلاب الصيد، لأن سانسون كان يحب الصيد، كما أن المنطقة غنية بالطرائد، ويوجد في الاسطبلات ثلاثون حصان وثلاثون بغل، هذا وقد تمت تحيته في الكنيسة من طرف رجلي دين فرنسيسكان، والذي زار معهما المشفى حيث يعمل طبيب وجراح وصيدلي وحلاق، وبجانب الكنيسة توجد مقبرة كبيرة أنشأت بسبب ارتفاع عدد الوفيات دائما في الحصن بسبب الأوبئة التي تجتاحه من فترة إلى أخرى (Masson, 1928, p. 104) ولذلك يتم تعويض اليد العاملة القادمة من كورسيكا لاستكمال الفريق العامل، إضافة إلى القاطنين خارج أسوار الحصن، حيث كان

الحصن الفرنسي (الباسطيون) بمدينة القالة خلال الفترة العثمانية - دراسة تاريخية أثرية -

يوجد تجمع سكاني كبير يقطنه المئات من العرب الذين يعيشون تحت حماية القلعة ويقدمون خدمات كبيرة في بعض الأعمال الشاقة. (Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 33) والجدير بالإشارة أن الكتابة التأسيسية التذكارية للحصن الفرنسي باسم سانسون مازالت قائمة في مكان تشييد الحصن في القالة بولاية الطارف (الشكل: 04 الصورة: 02).

الشكل 04 : مخطط الحصن الفرنسي في فترة حكم سانسون نابليون



عن: (Masson P., 1903)

الصورة 02: كتابة تذكارية لسانسون نابولون في موقع الحصن الفرنسي



عن: مديرية الثقافة لولاية الطارف

تمكن سانسون من الحصول على مكافئة بعد كل الجهود المضنية والتضحيات التي قام بها، ففي 26 أبريل 1632م أقيم في الحصن الفرنسي حفل كبير، وتم استعراض على مبعوث الكاردينال ريشليو والفرق العسكرية للحصن والأخرى التي قدمت من القالة ومن نقاط أخرى، وأمام هذه الجموع استلم سانسون من طرف ضيفه شهادة ملكية من لجنة الحاكم الملكي Commission de gouverneur royal مختومة بالختم الكبير لفرنسا مؤرخ في 29 أوت 1631م، وأدى بصوت جهوري قسم الوفاء للملك، الذي أداه أيضا كل الضباط والجنود، التابعين له، وبعد أيام قليلة كتب السيد ليزل انتري لأسقف سان مالو: "لم أشاهد في حياتي أجمل من هذا الحصن، إنه يعطيني أمل في مستقبل واعد". (Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 35)

4.5. وفاة سانسون نابليون وتحطيم الحصن وإعادة بنائه سنة 1050هـ / 1640م

إن أمل سانسون كان قصيرا، ولم يكتمل حلمه بالاستيلاء على جزيرة طبرق، ليستكمل خط نقاط الارتكاز حيث توفي في أقل من سنة، وهذا اثر مهاجمته لطبرقة، (سعيدوني، ناصرالدين، ص 97) وبعد وفاته قام الملك الفرنسي لويس الثالث عشر بتعيين المارسيلى سانسون لوباج Sanson Le Page كقائد للباستيون خلفا لنابليون، وتكليفه بمهمة مفاوضة الجزائريين لتعديل بعض بنود معاهدة 1037هـ/1628م لتشمل قضية الأسرى التي أضحت تؤرق الفرنسيين كثيرا. (Grammont D. , Histoire d'Alger sous la domination turque, 1887, p. 25)

لم يحقق سانسون لوباج أي نجاح في المفاوضات مع الجزائريين وقفل راجعا إلى مارسيلى، كما أن إقدام الأميرال دي منتى De Manti على قصف مدينة الجزائر والاستيلاء على سفينتين تجاريتين جزائريتين، أدى إلى إصدار الأوامر للريس علي بتشين باستئصال التواجد الفرنسي في شرق الجزائر، فتوجه بسفنه إلى الباستيون في نهاية شهر ديسمبر 1637م، وقام بتهديم الحصن وأسر 317 فرنسيا اقتيدوا إلى مدينة الجزائر، (Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 34) وتحول الحصن الذي كان يعجّ بالحركة إلى مقبرة يسودها صمت رهيب، ليتوقف نشاطها نهائيا لمدة سنتين دون أن تكون هناك مساعي من الطرفين لحل هذا المشكل نظرا لانشغال فرنسا بحروبها مع اسبانيا والوضع الذي كانت تعيشه الجزائر على وقع هزيمة أسطولها في فالونيا. (بوعزيز، يحيى، 1985، ص 73).

مع نهاية 1048هـ/1639م ترأس القائد جون باتيست دي كوكيل Jean-Baptiste Cocquiel المفاوضات عن الجانب الفرنسي بوصوله إلى اتفاقية صلح وسلام مع الجزائر وإعادة تأهيل الباستيون، وتوقيع معاهدة السلام في يوم السابع من شهر جويلية سنة 1640م، والتي نصت في بندها الثالث على إعادة بناء الباستيون من جديد، (Crescenzo, 1910، ص 483) وكان أغلب بنود المعاهدة كسابقاتها، غير أنه أضيف للمعاهدة بند جديد، يتضمن تحصين الباستيون والقالة لحمايتهما من هجمات الاسبان، وضمان حماية سفن القراصنة -السفن الجزائرية- التي ترسو في المينائين، وهذا ما يضمن عدم مهاجمتهم من طرف القراصنة

الجزائريين،(Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 34) وقد سارع الجزائريون إلى توقيع هذه المعاهدة، لأن الحصن يعود عليهم بالفوائد جميعا، وبدون الحصن لا توجد تجارة وبالتالي لا يوجد مال²¹، كما أرجع بعض المؤرخين السبب في إعادة بناء الحصن إلى حاجة خزينة مدينة الجزائر للعوائد التي كانت يجمعها الحصن (قنان، جمال، 2010، ص 67).

تولى توماس بيكي إدارة الباستيون خلفا لـدي كوكيل، فزادت ديونه المستحقة للحكومة الجزائرية، ونظرا لتهديدات الباشا المتوالية لـ توماس بيكي بتسديد الديون قام هذا الأخير بافتعال مشكلة وتهديم الحصن سنة 1658م والهروب نحو ليفورن أسرا مجموعة من الجزائريين من ضمنهم أربع شواش، لينتوقف نشاط الباستيون من جديد رغم عدم رضى الملك الفرنسي لويس الرابع عشر على تصرفاته، ولكن لم يعاقبه وعين مكانه لويس كومبون Louis Campon، ثم أرسل إبراهيم باشا طالبا من الجزائريين قبول هذا المسؤول الجديد وتسهيل مهمته، وتذكر المصادر أن الديوان قبل رسالة الملك، لكن إعادة إنشاء الحصن من جديد عرف تأخرا كبيرا بسبب الأوضاع الداخلية في الجزائر. (الشيخ، 2012-2013، صفحة 81) جددت معاهدة سانسون التي عقدت سنة 1628م سنة 1694م، وفي هذه المرة تقرر أن تدفع فرنسا زيادة على المبلغ الوارد في المعاهدة السابقة، عشرين ألف فرنك لسلطات قسنطينة (Piesse, 1862, p. 497).

بعد ذلك وقع التجديد مرات عديدة، ولكن أهمها ذلك الذي تم سنة 1129هـ/1717م، وأهميته ناتجة عن كونه الأول والأخير الذي وقع عليه باي قسنطينة، المسؤول المباشر عن منطقة الامتيازات،²² وأهم نقطة تضمنتها المعاهدة إضافة إلى النقاط القديمة المتعلقة بالمرجان محتوى المادة السابعة والتي ينص بندها على عدم السماح لأي مركب أجنبي مهما كانت جنسيته ولو كان مسلما، أن يشحن قمحا وشعيرا وموادا أخرى، في عنابة وفي سائر الموانئ الأخرى التي تشملها الامتيازات.(Deval, 1770, p. 11) ولكنه أخلي بسبب الأوبئة التي اجتاحتها من حين لآخر، فاشترت الشركة الملكية الإفريقية الحصن الفرنسي وهذه الأخيرة هي التي كانت تشرف على تسيير الباستيون(De La Primaudaie, 1860, p. 153) عندما رخصت السلطات العليا لصيد المرجان في شهر جويلية سنة 1791م لمن أراد ذلك من الفرنسيين بدون مراقبة، فضعت الشركة الملكية الإفريقية وأدى هذا القرار إلى زوالها (الزيري، محمدالعربي، 1972، ص 197). بعدها تعاقبت على الحصن والقالة عدة شركات منها الوكالة الإفريقية والوكالة الإنجليزية وشركة السيد باري Paret... الخ، التي أشرفت على تسييرها فرنسا، وبقي الأمر كذلك إلى غاية سنة 1214هـ/1799م، عندما قامت السلطات الجزائرية بتهديم المؤسسات بأمر من الباب العالي وبالتالي تهديم الحصن الفرنسي الذي بقيت بعض آثاره بمدينة القالة بولاية الطارف، وهي عبارة عن أجزاء قليلة من جدران الحصن، التي انهارت وتآكلت بعض حجارتها، وهي عبارة عن حجارة رملية، كما بقيت بعض الأجزاء من برج المراقبة الذي ذكرناه سابقا، (صورة 01) والمعلم مصنف من بين المعالم الأثرية، والمواقع التاريخية في الجزائر، ومدينة الطارف، وهو في حالة إهمال، رغم أنه يعد معلما أثريا ومكسبا سياحيا، من شأنه بعث السياحة في المنطقة (اللوحة 01).

اللوحة 01: آثار وبقايا الحصن الفرنسي حاليا



عن: مديرية الثقافة بولاية الطارف

خاتمة

من خلال هذا العرض توصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها: أوجدت وكالة الباستيون أو الحصن الفرنسي حركة اقتصادية نشيطة خلال القرن 15 و17م، حيث انتشرت الصناعات اليدوية المختلفة في شكل مجموعات حرفية منظمة، يتميز كل فرع منها في شارع خاص به، مثل الأسواق الخاصة بالخرازين والنجارين والخزافين والحدادين والصياغين وبائعي البرانس، ومنظفي المرجان وصناعته، فهذه الصناعة لم تكن منتشرة من قبل بل دخلت في فترة الحروب الصليبية، (Savary, 1757, p. 245) وتطورت خلال الفترة العثمانية والفترة الاستعمارية، وأصبحت أسواق مدن بايلك الشرق من أغنى الأسواق في شمال إفريقيا، كما نشطت الزراعة وتعددت مجالاتها من زراعة الحبوب إلى منتجات أخرى، كما تطورت الثروة الحيوانية كتربية المواشي لإنتاج الجلود والأصواف، وتربية النحل للحصول على العسل والشمع، وكل هذه المواد كانت تباع لتجار الباستيون، (Peyssonnel, 1838, p. 221) هذه الأنشطة التجارية والحرفية التي أفرزتها وكالة الباستيون، أدت إلى زيادة مداخيل السلطة المحلية، لدرجة أن دنوش بايلك الشرق كان يعتبر من أغنى دنوش بايلك الجزائر في تلك الفترة، حيث كانت معظم المداخيل من تجارة المرجان والقمح (الشيخ، 2012-2013، ص 105).

صنع مرجان مدينة القالة الذي تأسس الحصن الفرنسي من أجله ثورة وثروة بين أوساط الأوروبيين خلال الفترة الإسلامية والاستعمارية، لجودته ووفرته، فاشتهرت المدينة وأصبحت قبلة لكل التجار، وساهمت في إيجاد نشاط اقتصادي كبير وفتح المجال للمتاجرة بأنشطة أخرى.

جاءت صناعة المرجان إلى الجزائر نتيجة التواجد الأوروبي وادخلوا تقنيات صناعية وطرق صيد أخرى، وساهمت إلى حد ما في إيجاد فرص عمل للجزائريين الذين أدركوا مدى أهميتها، ولو أن الاستفادة لم تكن محلية إلا بنسبة ضئيلة، فدخلت في صناعة الحلي وتزيين العديد من تحف الفنون التطبيقية. قد لا نجانب الحقيقة إذا أرجعنا جذور عدم ممارسة وتطور صناعة المرجان في الجزائر، إلى وجود شركات احتكارية أجنبية خدمت مصالحها ومصالح بلادها، رغم تواضع نشاط صناعة المرجان في الفترة العثمانية بالنسبة للجزائريين، واستمراره في الفترة الاستعمارية، والتي لم تتعدى صناعته إطارها التقليدي، استطاع تغطية حاجات الأهالي المتواضعة خلال هذه الفترة.

وفي الأخير نستطيع القول إن الحصن الفرنسي يعتبر أولى الشركات التي احتكرت صيد المرجان وتجارته من طرف الفرنسيين والدول الأجنبية الأخرى، وساهم في خلق حركة اقتصادية نشيطة، أدت إلى خدمة مصالح الدول الأجنبية، كما أنه أثر على العلاقات السياسية بين الجزائر وفرنسا، بحسب الظروف التي مر بها البلدين. واشتهرت مدينة القالة بهذا المعلم الأثري الذي أصبح قبلة للزوار، من شأنه رفع وتحسين الاستثمار الاقتصادي في السياحة الحموية.

التعليقات

1 - الباستيون: لفظة إسبانية تعني القلعة.

2 - بوربون **Bourbon**: أسرة حكمت فرنسا، برز منها نحو سبعين حاكماً، منهم من حمل لقب دوق مضافاً إليه اسم المقاطعة (أو الإقطاع) وآخرون حملوا التاج الملكي في العصور الحديثة، أنشئت في النصف الأول من القرن الرابع عشر أنظر، (محمد شفيق، 1965، صفحة 1024)

3 - بعد سيطرة الجنوبيون على جزيرة كورسيكا فر الاخوة الثلاثة من عائلة lengio، فاستقروا في البداية في مارسيليا، ثم كانت وجهتهم السواحل البربرية (barbaresques)، الأخ الأكبر يسمى توماس سكن مرسيليا سنة 1533 واستطاع تحصيل ثروة من خلال التجارة مكنته من شراء مسكن جميل في قلب مرسيليا سنة 1545، وفي حوالي 1550م تحصل عل موافقة داي الجزائر لصيد المرجان على السواحل البربرية، هذا وقد استقر توماس في البداية في مدينة عنابة مقر تجارته، بعدها انشأ الحصن الفرنسي، والجدير بالذكر أن لانش لم يكن يقيم بصفة دائمة في هذا الحصن، حيث كانت إقامته المعتادة في مارسيليا، وكان يقوم بمهام إدارة أعمال شركة المرجان. أنظر: (Degen, 1993, pp. 24-25)

4 - قبيلة معزولة: منطقة تتميز بوجود بحيرات مثل: بحيرة الملاح والبايرة وطونقا، والتي تحيط بشبه جزيرة القالة. أنظر: (Degen, 1993, p. 9)

5 - نوه الباحث دوجون Degen إلى أنه في بداية القرن 10هـ/16م كانت قبائل الهضاب العليا لمنطقة قسنطينة إلى مدينة القالة، وهذا قبل مجيء الأتراك الذين فرضوا على الفرنسيين إتاوات سنوية، فبقيت علاقات جيدة بين الفرنسيين والقبائل المجاورة، ووقفت هذه القبائل في صف الفرنسيين في مواجهاتهم مع الأتراك في كثير من الأحداث، وقد مهد ذلك للقيام بامتيازات تجارية، لكن لم يكن من السهل تطبيقها بسبب عدم امتثال القبائل المجاورة، ومن بينها قبيلة معزولة. أنظر: (Degen, 1993, pp. 5-10)

6 - حسب الدراسات فإن الجغرافي بييري ريس، قد وضع الخرائط ووصفها وصفا دقيقا لكل نقطة وصل إليها، لاسيما بعد المقارنة التي أجرتها وحدة الأقمار الصناعية أثناء رؤيتها لجزء من العالم ومقارنته على خريطة محي الدين بييري ريس، إذ اندهشت لدقة تحديده لكل

- الأجزاء التي وضعها على خريطة، لذا يعد ما قدمه محي الدين بيري ريس انجازا خدم علم الجغرافيا البحرية، وارثا مهما دل على قدرات عالية ومعرفة واسعة، وأكملها سنة 1528م. أنظر: (محمد خيضر، 2009، ص 70، 87)
- 7 - **توماس لانث**: من أصل كوريسكي استوطن بمدينة مرسيليا، وبعد أن أحرز على موافقة الباب العالي والجزائر معا طلب من الحكومة الفرنسية حق المواطنة أو التجنس حتى يحظى بحمايتها وبمساعدهتها، وما زال إلى يومنا في مدينة مرسيليا حي يعرف بحي لانث، الذي لا يبعد كثيرا عن الميناء القديم أنظر: (Mas latrie, 1845, pp. 304,305)
- 8 - **هنري الثاني (1519-1559)**: ملك فرنسا (1547-1559)، ابن الملك فرنسيس الاول وخليفته، زوج كاثرين دي ميثشي (Catherine de médicis) ابتداء من عام 1533م، أنظر: (منير، 1992، ص 477)
- 9 - **علج علي**: هو الباشا التاسع عشر حسب ما ذكره هايدو، أصله من كلابريا، ينتمي إلى عائلة فقيرة، أسر من طرف الرئيس علي أحمد، بعد اعتناقه للإسلام، ونظرا لما أبداه من شجاعة وحزم عين حاكما على الجزائر. أنظر: (Haedo, 1881, p. 135)
- 10 - حسب بول ماسون فإن توماس لانث تحصل على موافقة الباب العالي التي تلتها موافقة حكومة الجزائر، ويعود الفضل في هذا المكسب كما يبدو إلى تدخل علج علي، الذي كان على صلات طيبة بتوماس لانث، وإلى الشعبية التي امتاز بها في أوساط مدينة الجزائر، وإلى ثقة أشرف المدينة، وفي مدينته أيضا بعد إحراره على حق ممارسة صيد المرجان وإنشاء المصارف أسس بمدينة مرسيليا "شركة المرجان الكبرى لمياه عذبة". وازدهرت شركة لانث، أنظر: (Giraud, 1936, p. 16)
- 11 - **ايزر**: هو إقليم أو مقاطعة فرنسية يقع في الجنوب الشرقي يحيط بإقليم دروم - Drôme
- 12 - **جون بيرو**: أحد مسييري الحصن الفرنسي
- 13 - **سفاري دو بريف**: هو سفير فرنسا بإسطنبول من (1592-1606م)، هناك من يقول إنه عين في عهد الملك هنري الرابع، وهناك من يقول إنه عين قبل هذا الملك. أنظر: (حسنه، 2005، ص 26).
- 14 - **هنري الرابع (1553-1610م)**: ملك ناكار (1572-1589م) وملك فرنسا (1589-1610م) أول ملوك اليا بوريون الفرنسيين، كان زعيم الهوغونوت أو البروتستانت الفرنسيين، ولكنه اعتنق المذهب الكاثوليكي عام 1593م، رغبة في توطيد عرشه. أنظر: (منير، 1992، ص 478).
- 15 - يذكر حسن دردرو أنه من بين أسباب تهديم الحصن غضب الأهالي بسبب تواصل افتزاز للسلطات المحلية وسكان الناحية معا، فبعد ما سمح لها بشراء بعض الأراضي، قامت بإزاحة السكان وإبعادهم من تلك المنطقة التي غدت حيوية لهذه المستعمرة، ونجم عن هذه السياسة المقصودة، تخلي بعض القبائل من بينها أولاد أورقين، أولاد دياب، أولاد نادي، عن أراضيها خاصة بعد أن حرمت من حق صيد المرجان، واستطاع موساك أن يحقق هدفه وهو الانفراد بالمنطقة، وأصبحت منطقة الحصن، تبدو وكأنها إقليم خاص به، حتى أن السفن الفرنسية التي لا علاقة لها بالتجارة، أصبحت تحتمي بتلك الشواطئ. أنظر: (Derdour, 1983, pp. 46,47)
- 16 - ذكر المؤرخ دوبريف في كتابه أن الجزائريين اشتروا عليه إطلاق سراح الأسرى الجزائريين في مرسيليا مقابل إطلاق الأسرى الفرنسيين، ورغم تهديدهم بالقتل لكل من يخرج عن إجماعهم برفض فرمان السلطاني، إلا أن المفاوضات لم تتج. أنظر: (Brèves, 1628, p. 377)
- 17 - تقلد توماس لانث سنة 1565م عضو مجلس مرسيليا للمرة الثانية على التوالي، وتوفي بعد ثلاث سنوات وخلفه على إدارة الشركة أخوه أنطوان لانث، الذي كان يمتلك خبرة كبيرة، أقام في مدينة عذبة ثم انتقل مدينة القالة، توفي سنة 1592م، وبعد أربع سنوات من موت أنطوان 1596م، تزوج ابنه توماس ابنة ماريشال فرنسا (Alphonse d'Ornano)، وحمل اسم عمه مؤسس حصن فرنسا، Thomas Lencio Sieur de Moissac، لكنه لم يحافظ على إرث عمه وأبيه، مما أدى إلى إفلاس الحصن، بالرغم من الإمكانيات التي كانت متوفرة له. أنظر: (Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 28)
- 18 - قام سانسون بعدة مهام من بينها حل خلاف بين السفير الفرنسي في القسطنطينية ومترجم السفارة، سنة 1623م، كما تمكن سفن من "القرصنة" سفينتين وإرجاعهما إلى مالكيها، كما حرّر في جزيرة "الأرخيل" 60 أسير وبنى في مدينة "أزمير" التركية مدرسة مسيحية،

علاوة على أنه قد بنى كنيسة كاثوليكية في جزيرة "شيو Chio" في بحر "ايجة"، في 4 جويلية 1624، وفي سنة 1624م تمكن من إطلاق سراح العديد في طرابلس وتونس والجزائر، ودفع الفديات من ماله الخاص، أنظر: (Filippi, Le Bastion de France, 1935, p. 31)

19 - بخصوص الأعباء المالية التي دفعها سانسون من أجل الأسرى أنظر: (جمال، 2010، ص 92).

20 - مدفعا دانسا: هما مدفعا البرونز اللذين سرقهما دانسا Dansa Simon الهولندي، من الدولة الجزائرية سنة 1017هـ/1609م، أنظر أيضا: (وليم و زيادية، 2006، ص 170.171). أنظر أيضا: (Grammont D. , Histoire d'Alger sous la domination turque, 1887)

21 - ثورة ابن الصخري: عرفت هذه الثورة بثورة ابن الصخري، نسبة إلى قائدها وشيخ العرب محمد بن الصخري بن بوعكاز الهلالي، قائد الدواودة والحناشنة، بسبب دفع اللزمة السنوية للديوان، وهذا ما تسبب في اندلاع مواجهة بين تلك القبائل وسلطات الجزائر، لتتعدى حدود بابلك الشرق، أنظر: (Dan, Histoire de Barbarie et de ses corsaires, 1649, p. 132)

22- للتعرف أكثر عن بنود هذه المعاهدة، أنظر: (الزبيري، محمدالعربي، 1972، ص 194).

قائمة المراجع:

- البعلبكي منير. (1992). معجم أعلام المورد، موسوعة تراجم لاشهر الاعلام العرب والاجانب القدامى والمحدثين مستقاة من "موسوعة" المورد".
- البكري، أ. ع. (1971). كتاب المسالك والممالك. بيروت: دار الكتاب.
- الزبيري، محمدالعربي. (1972). التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792 - 1830م. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- الملي، مبارك. (1963). تاريخ الجزائر في القديم والحديث، (المجلد 3). الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر.
- بوعزيز، يحي. (1985). علاقات الجزائر مع دول وممالك اوروبا 1830 - 1500م. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- رابحة، محمد خيضر. (2009). من أعلام الجغرافيا البحرية العثمانية محي الدين بيري ريس. المجلد 16.
- سبنستر، وليم، وترجمة عبد القادر، زيادية. (2006). الجزائر في عهد رياس البحر. الجزائر: دار القصة للنشر.
- سعيدوني، ناصرالدين. رحلة العالم الالمانى ج.أو. هابنسترايت الى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/1732م). تونس: دار الغرب الاسلامي.
- عائشة، غطاس. (1884-1885م). العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر (1619 - 1694 م). جامعة الجزائر : رسالة الماجستير تاريخ حديث.
- قنان، جمال. (2010). معاهدات الجزائر مع فرنسا. 1830-1619 الجزائر: دار هومه.
- كمال، حسنة. (2005). العلاقات العثمانية الفرنسية في عهد السلطان سليم الثالث (1789-1807م). الجزائر: مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر.
- لكلل، الشيخ. (2012-2013). نشاط وكالة الباستيون وأثره على العلاقات الجزائرية خلال النصف الاول من القرن 11هـ/17م، (1013-1070هـ/1604-1659م). غرداية: رسالة ماجستير في التاريخ.
- مارمول، كريخال. (1984). إفريقيا (المجلد 3). الرباط: دار نشر المعرفة.
- محمد شفيق، غ. (1965). محمد شفيق غريال، الموسوعة العربية الميسرة. لبنان: دار القلم مؤسسة فرانكلين للطباعة.
- Bainier, P. F. (1877). *Géographie Appliquée à la Marine, Commerce, Agriculture, Industrie et à la Statistique*. Paris: Hachette.
- Berthelot, S. (1846). *De la pêche sur les côtes de l'Algérie*. paris: Rignoux, imprimeur.
- Brèves, F. (1628). *Relation des Voyages de Monsieur De Brèves*. BParis: Chez Nicolas Gasse.

- Charles, D. R. (1841). **Histoire d'Alger et de La Piraterie Turque dans la Méditerranée** (Vol. 2). Paris: Paulin Libr.
- Dan, p. (1649). **Histoire de Barbarie et de ses corsaires**. paris: imp et lib ordin roy au plais.
- De La Primaudaie, É. (1860, juin). **Le Commerce et la Navigation De l'Algérie**. R.A.C .
- Degen, M. (1993). **Le bastion de France**. paris: Edit. Confrérie castille, Alfortville.
- Derdour, H. (1983). **Annaba, 25 siècles de vie quotidienne et de luttes**: menus appendices sur l'histoire générale du Grand Maghreb. Alger: SNED.
- Deval, L. S. (1770). **Capitulations ou traités anciens et nouveaux entre la cour de France et la Porte Ottomane, renouvelés et augmentés l'an de J.-C. 1740**, et de l'Egire 1153. Paris: Impr. royale.
- Étienne, F. A. (1878). **Notice sur les produits maritimes du littoral Algérien** . paris: Imprimerie Cursach.
- Féraud, L.-C. (1877). **Histoire des villes de la province de Constantine**. La Calle. Paris: the New York Public Library.
- Filippi, L. (1935, juin 10-11). **L'œuvre de la Société "Le Bastion de France**. Premier Congrès de la Fédération des Sociétés Savantes de l'Afrique du Nord .
- Galibert, L. (1843). **Histoire de l'Algérie Ancienne et Moderne**. Paris: Furne Et Cie Edit.
- Garrot, H. (1910). **Histoire générales de l'Algérie**. Alger: impr. P.Crescenzo.
- Giraud, P. (1936). **Les Lenche à Marseille et en Barbarie** (Vol. , n°13). Paris: Mémoires de l'Institut historique de Provence.
- Grammont, D. (1887). **Histoire d'Alger sous la domination turque**. Paris: Ed Ernest Leroux.
- Grammont, H.-D. (1879). **La maission de Sanson Napollon 1628-1633**, In R.Afr, 1879, V. 23. Revue africaine , 23.
- Haedo, F. (1881). **Histoire des rois d'Alger**. Paris: Adolphe Jourdan Impr.
- Hammer, J. (1836). **Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours** (Vol. 18). (H. J, Trad.) Paris: Bellizard et Cie Libraires.
- Maddy, D. (1993). **Le bastion de France**. Alfortville: Confrérie castille.
- Mas latrie, M. (1845). **Aperçue des relations commerciales de l'Italie septentrionale avec l'Algérie au moyen âge**. paris: imp. royale.
- Masson. (1928). **Les Compagnies Du Corail, Étude Historique Sur Le Commerce de Marseille Au Xvie Siècle: Et Les Origines de la Colonisation Française En Algérie-Tunis**. Paris: Hachette.
- Nicolas, D. N. (1576). **Les navigations, pérégrinations et voyages faits en la Turquie**. Anvers: Impr. de Roi.
- Peyssonnel, J. A. (1838). **Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger** (Vol. 2). Paris: Libr. De Gide.
- Piesse, L. (1862). **Itinéraire historique et descriptif de l'Algérie: comprenant le Tell et le Sahara**. Paris: Hachette.
- Plantet. (1930). **Les consul de France a alger avant le conquête 1579-1830**. Paris: Les Messagrie hachette.
- Poiret, J.-L.-M. (1789). **Voyage en Barbarie, ou Lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785 & 1786, sur la religion, les coutumes & les murs des Maures & des Arabes-Bédouins; avec un essai sur l'histoire naturelle de ce pays**. (éd. 01). Paris: Chez J.B.F. Née de la Rochelle.
- Savary, J. (1757). **Le Parfait négociant** (Vol. 2). Paris: Chez les frères Estienne.